محمد ابن الحنفية

محمد ابن الحنفية

أعـلام التابعيـن

محمد ابن الحنفية

السيد الإمام أبو القاسم وأبو عبد الله، محمد بن الإمام علي بن أبي طالب أخو الحسن والحسين، وأمه من سبي اليمامة زمن أبي بكر الصديق، وهي خولة بنت جعفر الحنفية.

وأما كنيته بأبي القاسم فيقال: إنها رخصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه قال لعلي رضي الله عنه: سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي، ولا تحل لأحد من أمتي بعده.

عن أسماء قالت: رأيت الحنفية وهي سوداء، مشرطة حسنة الشعر، اشتراها علي بذي المجاز، مقدمه من اليمن، فوهبها لفاطمة فباعتها، فاشتراها مكمل الغفاري فولدت له عونة.

وقيل: بل تزوج بها مكمل، فولدت له عونة، وقيل: إن أبا بكر وهبها عليا.

ولد محمد ابن الحنفية في العام الذي مات فيه أبو بكر.

ورأى عمر، وروى عنه، وعن أبيه، وأبي هريرة، وعثمان، وعمار بن ياسر، ومعاوية، وغيرهم.

وحدث عنه بنوه عبد الله، والحسن، وإبراهيم، وعون، وسالم بن أبي الجعد، ومنذر الثوري، وأبو جعفر الباقر، وعبد الله بن محمد بن عقيل، وعمرو بن دينار، ومحمد بن قيس بن مخرمة، وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي، وآخرون.

ووفد على معاوية، وعبد الملك بن مروان، وكانت الشيعة في زمانه تتغالى فيه، وتدعي إمامته، ولقبوه بالمهدي، ويزعمون أنه لم يمت.

قال أبو عاصم النبيل: صرع محمد بن علي مروان يوم الجمل، وجلس على صدره. قال: فلما وفد على عبد الملك قال له: أتذكر يوم جلست على صدر مروان؟ قال: عفوا يا أمير المؤمنين. قال: أما والله ما ذكرته لك وأنا أريد أن أكافئك ; لكن أردت أن تعلم أني قد علمت.

ولما صار محمد بن علي إلى المدينة، وبنى داره بالبقيع، كتب إلى عبد الملك يستأذنه في الوفود عليه، فأذن له، فوفد عليه في سنة ثمان وسبعين إلى دمشق، فأنزله بقربه، وكان يدخل على عبد الملك في إذن العامة، فيسلم مرة ويجلس، ومرة ينصرف. فلما مضى شهر، كلم عبد الملك خاليا، فذكر قرابته ورحمه، وذكر دينا، فوعده بقضائه، ثم قضاه وقضى جميع حوائجه.

وكان مائلا إلى عبد الملك لإحسانه إليه، ولإساءة ابن الزبير إليه.

قال الزبير بن بكار: سمته الشيعة المهدي، فأخبرني عمي مصعب قال: قال كثير عزة:

هو المهدي أخبرناه كعب : أخو الأحبار في الحقب الخوالي
فقيل له: ألقيت كعبا؟ :: قال: قلته بالتوهم

وقال أيضا:

ألا إن الأئمة من قريش :: ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه هم : الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر :: وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى : يقود الخيل يقدمها لواء
تغيب - لا يرى - عنهم زمانا :: برضوى عنده عسل وماء

وقد رواها عمر بن عبيدة لكثير بن كثير السهمي.

قال الزبير كانت شيعة ابن الحنفية يزعمون أنه لم يمت، وفيه يقول السيد الحميري:

ألا قل للوصي فدتك نفسي :: أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا : وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض :: طرا مقامك عنهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت : ولا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى بمورق شعب رضوى :: تراجعه الملائكة الكلاما

وإن لـــه بـــه لمقيـــل صـــدق : وآنديـــــة تحدثـــــه كرامـــــا
هـــدانا الله إذ خـــزتم لأمـــر :: بـــه وعليـــه نلـــتمس التمامـــا
تمـــام مـــودة المهـــدي حتـــى : تـــروا راياتنـــا تتـــرى نظامـــا
::
:
::
:
::
:
::
:

وللسيد الحميري:

يـا شعب رضوى مـا لمن بك لا ::
يـــــــــــــــــــرى : وبنـــا إليـــه مـــن الصـــبابة أولـــق
حتـــى متـــى، وإلـــى متـــى، وكـــم :: يا ابن الوصي وأنت حي ترزق
المـــــــــــــــــدى :

ووقع بين علي بن أبي طالب وطلحة كلام، فقال طلحة: لجرأتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم سميت باسمه وكنيت بكنيته، وقد نهى أن يجمعهما أحد. قال: إن الجريء من اجترأ على الله ورسوله، اذهب يا فلان فادع لي فلانا وفلانا لنفر من قريش، فجاؤوا فقال: بم تشهدون؟ قالوا: نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سيولد لك بعدي غلام، فقد نحلته اسمي وكنيتي، ولا تحل لأحد من أمتي بعده.

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه علي محمد ابن الحنفية، وهو عند أخته أم كلثوم، فضمه وقال لها: ألطفيه بالحلواء.

وكان يقول: حسن وحسين خير مني، ولقد علما أنه كان يستخليني دونهما، وإني صاحب البغلة الشهباء.

قال إبراهيم بن الجنيد: لا نعلم أحدا أسند عن علي أكثر ولا أصح مما أسند ابن الحنفية.

وكانت راية علي - رضي الله عنه - لما سار من ذي قار مع ابنه محمد.

و قال ابن الحنفية: أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أندادا من دون الله:

نحن، وبنو عمنا هؤلاء ; يريد بني أمية.

و كتب عبد الملك: من عبد الملك أمير المؤمنين إلى محمد بن علي، فلما نظر محمد إلى عنوان الكتاب قال: إنا لله، الطلقاء ولعناء رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنابر! والذي نفسي بيده إنها لأمور لم يقر قرارها.

قلت: كتب إليه يستميله فلما قتل ابن الزبير واتسق الأمر لعبد الملك بايع محمد.

وقال ابن الحنفية: وفدت على عبد الملك فقضى حوائجي، وودعته، فلما كدت أن أتوارى ناداني: يا أبا القاسم، يا أبا القاسم، فرجعت، فقال: أما إن الله يعلم أنك يوم تصنع بالشيخ ما تصنع ظالم له - يعني، لما أخذ يوم الدار مروان فدغته بردائه - قال عبد الملك: وأنا أنظر يومئذ ولي ذؤابة.

وقال رجل لابن الحنفية: ما بال أبيك كان يرمي بك في مرام لا يرمي فيها الحسن والحسين؟ قال: لأنهما كانا خديه وكنت يده، فكان يتوقى بيديه عن خديه.

وعن ابن الحنفية قال: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله من أمره فرجا، أو قال: مخرجا.

وعن ابن الحنفية قال: من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر.

وعنه: أن الله جعل الجنة ثمنا لأنفسكم فلا تبيعوها بغيرها.

محنة محمد ابن الحنفية مع ابن الزبير وعبد الملك بن مروان:

كان محمد ابن الحنفية بايع ليزيد بن معاوية حين أخذ معاوية له البيعة على الناس غير مغتاص ولا ملتو عليه، فكان معاوية يشكر له ذلك ويصله عليه ويقول: ما في قريش كلها أرجح حلماً ولا أفضل علماً ولا أسكن طائراً، ولا أبعد من كل كبر وطيش ودنس من محمد بن علي، فقال له مروان ذات يوم: والله ما نعرفه إلا بخير، فأما كل ما يذكر فإن غيره من مشيخة قريش أولى به، فقال معاوية: لا تجعلن من يتخلق لنا تخلقاً، وينتحل لنا الفضل انتحالاً كمن جبله، إنه على الخير وأجراه على السداد، فوالله ما علمتك إلا موزعا مغرى بالخلاف.

وكان يزيد يعرف ذلك له أيضاً، فلما ولي يزيد لم يسمع عن ابن الحنفية إلا

جميلاً وببيعته إلا تمسكاً ووفاءً، وازداد له حمداً وعليه تعطفاً، فلما قتل الحسين بن علي، وكان من ابن الزبير ما كان كتب يزيد إلى ابن الحنفية يعلمه أن قد أحب رؤيته وزيارته إياه، ويأمره بالإقبال إليه، فقال له عبد الله ابنه: لا تأته فإني غير آمنه عليك، فخالفه ومضى إلى يزيد، فلما قدم عليه أمر فأنزل منزلاً وأجرى عليه ما يصلحه ويسعه، ثم دعا به وأدنى مجلسه وقربه حتى صار معه، ثم قال له: آجرنا الله وإياك في الحسين بن علي، فوالله لئن كان نغضك لقد نغضني، ولئن كان أوجعك لقد أوجعني، ولو أني أنا الذي وليت أمره ثم لم أستطع دفع الموت عنه إلا بحز أصابعي أو بذهاب نواظري لفديته بذلك، وإن كان قد ظلمني وقطع رحمي ولا أحسبه إلا قد بلغك أنا نقوم به فننال منه ونذمه، وأيم الله ما نفعل ذلك لئلا يكونوا الأحباء الأعزاء، ولكنا نريد إعلام الناس أنا لا نرضى إلا بأن لا ننازع أمراً خصنا الله به، وانتخبنا الله له.

فقال له ابن الحنفية: وصلك الله، ورحم حسيناً وغفر له، قد علمنا أن ما نغضنا فهو لك ناغض، وما عالنا فهو لك عائل، وما حسين بأهل أن تقوم به فتقصيه وتجذبه، وأنا أسألك يا أمير المؤمنين أن لا تسمعني فيه شيئاً أكرهه.

فقال يزيد: يا بن عم. لست تسمع مني فيه شيئاً تكرهه، وسأله عن دينه، فقال: ما علي دين فقال يزيد لابنه خالد بن يزيد: يا بني إن عمك هذا بعيد من الخب واللؤم والكذب، ولو كان لبعض هؤلاء لقال: علي كذا وكذا، ثم أمر له بثلاثمائة ألف درهم فقبضها، ويقال انه أمر له بخمسمائة ألف، وعروض بمائة ألف درهم.

وكان يزيد يتصنع لابن الحنفية ويسأله عن الفقه والقرآن، فلما جاء ليودعه قال له: يا أبا القاسم إن كنت رأيت مني خلقاً تنكره نزعت عنه، وأتيت الذي تشير به علي، فقال: والله لو رأيت منكراً ما وسعني إلا أن أنهاك عنه وأخبرك بالحق لله فيه، لما أخذ الله على أهل العلم من أن يبينوه للناس ولا يكتموه، وما رأيت منك إلا خيراً.

وشخص من الشام حتى ورد المدينة، فلما وثب الناس بيزيد وخلعوه ومالوا إلى ابن الزبير، وأتاهم مسلم بن عقبة المري في أهل الشام، جاء عبد الله بن عمر

بن الخطاب وعبد الله بن مطيع في رجال من قريش والأنصار فقالوا لابن الحنفية: أخرج معنا نقاتل يزيد، فقال لهم محمد بن علي: على ماذا أقاتله ولم أخلعه؟ قالوا: إنه كفر وفجر، وشرب الخمر، وفسق في الدين، فقال لهم محمد بن الحنفية: ألا تتقون الله هل رآه أحد منكم يعمل ما تذكرون، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت منه سوءاً.

قالوا: إنه لم يكن يطلعك على فعله. قال: أفأطلعكم أنتم عليه؟ فلئن كان فعل إنكم لشركاؤه، ولئن كان لم يطلعكم لقد شهدتم على غير ما علمتم.

فخافوا أن يثبط قعوده الناس عن الخروج فعرضوا عليه أن يبايعوه إذكره ان يبايع لابن الزبير، فقال: لست أقاتل تابعاً ولا متبوعاً. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك. قال: وأين مثل أبي اليوم.

فأخرجوه كارهاً ومعه بنوه متسلحين وهو في نعل ورداء، وهو يقول: يا قوم اتقوا الله ولا تسفكوا دماءكم. فلما رأوه غير منقاد لهم خلوه. فذهب أهل الشام ليحملوا عليه فضارب بنوه دونه فقتل ابنه القاسم بن محمد، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله.

وأقبل ابن الحنفية إلى رحله فتجهز ثم خرج إلى مكة من فوره ذلك، فأقام بها حتى حصر عبد الله بن الزبير حصاره الأول، وهو في ذلك قاعد عنه لا يغشاه ولا يأتيه، وسأل قوم من الشيعة من أهل الكوفة عن خبره فأعلموا أنه بمكة، فشخصوا إليه وكانوا سبعة عشر رجلاً.

فبعث عبد الله بن الزبير إلى ابن الحنفية بعد انصراف أهل الشام من مكة مع الحصين بن نمير السكوني، وموت يزيد بن معاوية: أن هلم فبايعني. فأبى عليه، وبايع الناس ابن الزبير بالمدينة والكوفة والبصرة، فأرسل إليه أن الناس قد بايعوا واستقاموا فبايعني. فقال له: إذا لم يبق غيري بايعتك.

وبعث إلى السبعة عشر الكوفيين فسألهم عن حالهم وأمرهم بالبيعة له، فقالوا: نحن قوم من أهل الكوفة اعتزلنا أمر الناس حين اختلفوا، وأتينا هذا الحرم لئلا نؤذي أحداً ولا نؤذى، فإذا اجتمعت الأمة على رجل دخلنا معهم فيما دخلوا فيه، وهذا مذهب صاحبنا، ونحن معه عليه وله صحبناه.

فوقع في ابن الحنفية وتنقصه وقال: أما والله ما صاحبكم بمرضي الدين، ولا محمود الرأي، ولا راجح العقل، ولا لهذا الأمر بأهل.

فقام عبد الله بن هانئ فقال: قد فهمت ما ذكرت به ابن عمك من السوء، ونحن أعلم به وأطول معاشرة له منك، وأنت تقتل من لم يبايعك، وهو يقول والله ما أحب أن الأمة بايعتني كلها غير سعد مولى معاوية، فبعثت إليه فقتلته، وإنما عرض به لأنه كان بعث إلى سعد فقتله.

وكلمه عبد الله بن هانئ بكلام كثير فقال: إلهزوه وجؤوا في قفاه. فقال: أتفعل هذا في حرم الله وأمنه وجوار بيته؟ فقالوا له: لئن لم يضرك إلا تركنا بيعتك لا يضرك شيء أبداً، ولا يلحقك مكروه، ودعا به فقال: إيه، أبي تضرب الأمثال، وإياي تأتي بالمقاييس؟ فقال: " إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب " فقال ابن الزبير: ادفعوهم عني لعنكم الله من عصابة.

فأتوا ابن الحنفية فأخبروه بما كان بينهم وبين ابن الزبير، فجزاهم خيراً وعرض عليهم أن يعتزلوه فأبوا وقالوا: نحن معك في العسر واليسر، والسهل والوعر، لا نفارقك حتى يجعل الله لك فسحة وفرجاً، وبايعوه على ذلك فقال لهم: إني بكم لمتأنس كثير، وسأله بعضهم أن يرصدوا ابن الزبير فيقتلوه إذا خرج من الحرم فكره ذلك، وقال: ما يسرني أني قتلت حبشياً مجدعاً ثم أجمع سلطان العرب كله.

وقدم على السبعة العشر الرجل من أبنائهم ثلاثة نفر: بشر بن سرح، والطفيل ابن أبي الطفيل عامر بن واثلة، وبشر بن هانئ بن قيس. فلما يئس ابن الزبير من بيعة ابن الحنفية وأصحابه وقد فسدت عليه الكوفة، وغلب المختار بن أبي عبيد الثقفي عليها، وأخرج ابن مطيع عامله عليها، ودعت الشيعة بها لابن الحنفية ثقل عليه مكان ابن الحنفية معه، وخشي أن يتداعى الناس إلى الرضى به. فحبسه وأهل بيته ومن كان معه من أصحابه أولئك بزمزم ومنع الناس منهم، ووكل بهم الحرس، ثم بعث إليهم: أعطي الله عهداً لئن لم تبايعوني لأضربن أعناقكم أو لأحرقنكم بالنار.

وكان رسوله بذلك عمرو بن عروة بن الزبير، فقال له ابن الحنفية: قل لعمك

لقد أصبحت جريئاً على الدماء منتهكاً للحرمة متلثلثاً في الفتنة.

وقال له عدة من السبعة العشر الرجل فيهم ابن مزعل: إن هذا حصرنا بحيث ترى، وخوفنا بما تعلم، والله ما ننتظر إلا أن يقدم، وقد ظهر بالكوفة من يدعو إلى بيعتك والطلب بدماء أهل بيتك فالطف لبعثة رسل من قبلك يعلمونهم حالك وحال أهل بيتك. فقال: اختاروا منكم نفراً فاختاروا الطفيل بن أبي الطفيل عامر ابن واثلة، وهو المقتول مع ابن الأشعث، ومحمد بن نشر، وأبا المعتمر وهانئ بن قيس، فأمرهم ابن الحنفية بكتمان أمرهم، وأمر لهم بأربع نجائب وأجلهم لذهابهم ومجيئهم ستاً وعشرين ليلة، فلما هدأت العيون ونام طالع الكلاب، ورمق الحرس فوجدهم نياماً مستثقلين دفع إليهم كتاباً منه إلى المختار بن أبي عبيد ومن قبله من الشيعة، يخبرهم فيه بحالهم وما يتخوفون من ابن الزبير، ويقول فيه: يا غوثتا بالله يا غوثتا بالله. وقال: إن رأيتم منه ما تحبون حمدتم الله على ذلك، وإن رأيتم منه تقصيراً فاعلموا الناس ما جاء بكم، والحال التي تركتمونا عليها.

فلما قرأ المختار الكتاب دعا أصحابه فقرأه عليهم، فوثب جميع من في القصر يبكون ويضجون ويقولون للمختار: سرحنا إليه وعجل، فخطب المختار الناس وقال: هذا كتاب مهديكم وصريخ أهل بيت نبيكم ومن معه من إخوانكم وقد تركوا محظوراً عليهم حظار كزرب الغنم ينتظرون القتل والتحريق في آناء الليل ونارات النهار، لست بأبي إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً وأسرب إليهم الخيل آثار الخيل كالسيل يتلوه السيل حتى يحل بابن الكاهلية الويل - يعني بابن الكاهلية عبد الله بن الزبير وذلك أن أم خويلد أبي العوام زهرة بنت عمرو بن حنثر من بني كاهل بن أسد بن خزيمة -.

وأنفذ المختار جواب كتاب ابن الحنفية مع محمد بن نشر، والطفيل بن أبي الطفيل عامر بن واثلة، واحتبس قبله أبا المعتمر وهانىء بن قيس ليسرح معهما جيشاً.

ثم وجه أبا عبد الله بن عبد بن ولد واثلة في سبعين راكباً، وعقبة بن طارق

الجشمي في أربعين راكباً، ويونس بن عمرو بن عمران الجابري في أربعين راكباً، وكان يونس قد رجع إلى الكوفة قبل شخوص هؤلاء الأربعة النفر، فسار هؤلاء المائة والخمسون ومن عليهم حتى وافوا مكة وابن الحنفية وأهل بيته وأولئك القوم بزمزم قد أعد لهم عبد الله بن الزبير الحطب ليحرقهم بالنار فيما يظهر للناس ولهم، حتى يبايعوا. فعقل القادمون رواحلهم بالباب ودخلوا فكبروا ونادوا: يا لثارات الحسين ثم شدوا على الحرس الموكلين بابن الحنفية وأصحابه فطردوهم، ودخلوا عليه يفدونه بآبائهم وأمهاتهم ويقولون: خل بيننا وبين ابن الزبير. فقال: لا أستحل القتال في حرم الله.

وقال ابن الزبير: واعجباً من هذه الخشبية [1] الذين اعتزلوني في سلطاني ينعون حسيناً كأني أنا قاتل حسين، والله لو قدرت على قتلته لقتلتهم.

وكان دخولهم على ابن الزبير وفي أيديهم الخشب كراهة أن يشهروا السيوف في الحرم والمسجد الحرام. وقال بعضهم بل وثبوا على الخشب الذي كان ابن الزبير جمعه حول زمزم لإحراق ابن الحنفية وأصحابه، فأخذ كل امرىء منهم بيده خشبة فسموا خشبية.

وأقبل ابن الزبير على أبي عبد الله الجدلي وأصحابه فقال: أتروني أخلي سبيل صاحبكم دون أن يبايع وتبايعوا؟ فقال الجدلي: ورب الركن والمقام والحل والإحرام لتخلين سبيله فينزل من مكة حيث شاء، ومن الأرض حيث أحب أو لنجالدنك بأسيافنا.

فقال ابن الزبير - ورأى أن أصحابه قد ملأوا المسجد، وأن أصحاب ابن الحنفية لا يبلغون مائتين -: وما هؤلاء، والله لو أذنت لأصحابي فيهم ما كانوا عندهم إلا أكلة رأس.

فقال صخير بن مالك: أما والله لأرجو إن رمت ذلك أن يوصل إليك قبل أن ترى فينا ما تحب.

وقال الطفيل بن عامر فقال:

(1) هم أتباع المختار بن عبيد الثقفي.

قـد علمـت ذات الشـباب الـرّود ⁝ والجرم ذي البضاضـة الممسود

إنا أسودٌ وبنو الأسود

فقال ابن الحنفية لعامر: يا أبـا الطفيل مر ابنك فليسكت، وتكلم ابـن الحنفيـة فقال: آمركم بتقوى الله وأن تحقنوا دماءكم، وإني معتزل لهذه الفتنـة حتـى تجتمع الأمة. إذ اختلفت وتفرقت فأطيعوني.

وقـال عبـد الله بـن عبـاس بـن عبـد المطلـب لابـن الزبيـر: قد نهيتك عن هذا الرجل وأعلمتك أنه لا يريد منازعتك فاكفف عنه وعن أصحابه.

فقال: والله لا أفعل حتـى يبـايع وتبـايعوا، أمـا بـايع يزيـد ولا يبـايعني؟! فمكث القوم ثلاثة أيام قد صف بعضهم لبعض في المسجد والمعتمرون يمشون فيما بينهم بالصلح - فلما كان اليوم الثالث قدم عليهم من قبل المختار أبو المعتمر في مائة، وهانىء بن قيس في مائة، وظبيان بن عمارة التميمي في مائتين، ومعه مال بعث به المختار، وهو أربعمائة ألف درهم، ثم أقبلوا جميعاً حتى دخلوا المسجد يكبرون وينادون: يا لثارات الحسين، فلما رآهم اصحاب ابن الزبير خافوهم.

ورأى ابن الحنفية أنه قد امتنع وأصحابه فقال لهم: اخرجوا بنا إلى الشعب. ولم يقدر ابن الزبير على حبسهم فخرج فنزل شعب علي، وضم إليه المال الذي عنده، وأتته الشيعة من عشرة وعشرين ورجل ورجلين حتى اجتمع عنده أربعة آلاف رجل، ويقال: أقل من أربعة آلاف فقسم بينهم المال الذي أتاه، فلما صار ابن الحنفية في هذا الجمع استأذنه قوم ممن كان قدم إليه في إتيان الكوفة للإلمام بأهليهم ثم الرجوع إليه، منهم عبد الله بن هانئ الكندي، وعقبة بن طارق الجشمي، ومالك بن حزام بن ربيعة الكلابي، وعبد الله بن ربيعة الجشمي، فقدموا الكوفة، فلما كانت وقعة جبانة السبيع قاتلوا المختار إلا عبد الله بن هانئ فيقال إنه رجع إلى ابن الحنفية.

ثم إن المختار بعث إلى ابن الحنفية بثلاثين ألف دينار مع عبد الرحمن بن أبي عمير الثقفي، وعبد الله بن شداد الجشمي، والسائب بن مالك الأشعري، وعبد

الله وهو عبدل لام بن الحصل الطائي، وبعث معهم برأس عبيد الله بن زياد، وحصين بن نمير، وابن ذي الكلاع، فنصبت هذه الرؤوس على باب المسجد.

وقسم ابن الحنفية ذلك المال بين أصحابه فقووا وعزوا.

قالوا: ولم يزل ابن الحنفية بالشعب عزيزاً منيعاً حتى قتل المختار، وظهر مصعب بن الزبير على الكوفة، واشتد أمر عبد الله بن الزبير وتضعضع أمر أصحاب ابن الحنفية، وانقطعت عنهم موادهم، واشتدت حاجتهم، وقال ابن الزبير لابن عباس: لم يبلغك قتل الكذاب؟. قال: ومن الكذاب؟. قال: ابن أبي عبيد. فقال: قد بلغني قتل المختار، قال: كأنك تكره تسميته كذاباً وتتوجع له؟. فقال: ذلك رجل قتل قتلتنا، وطلب بدمائنا، وشفى غليل صدورنا، ليس جزاؤه منا الشتم والشماتة.

فقال ابن الزبير: لست أدريك أأنت معنا أم علينا.

ومر ابن عباس بعروة بن الزبير فقال: قد قتل الكذاب المختار وهذا رأسه، فقال ابن عباس: إنه قد بقيت لكم عقبة فإن صعدتموها فأنتم أنتم - يعني عبد الملك وأهل الشام -.

وبعث ابن الزبير إلى ابن الحنفية إن البلاد قد افتتحت، وإن الأمور قد استوسقت فاخرج إلي فادخل فيما دخل فيه الناس وإلا فإني منابذك.

وكان رسوله بذلك عروة بن الزبير، فقال له ابن الحنفية: بؤساً لأخيك ما ألحه في إسخاط الله وأغفله عن ذات الله.

وقال لأصحابه في خطبة خطبها: إنه بلغني أن هذا العدو الذي قربت داره وساء جواره واشتدت ضغينته يريد أن يثور إلينا بمكاننا هذا من يومنا هذا، وقد أذنت لمن أحب الأنصراف عنا في ذلك فإنه لا ذمام عليه منا ولا لوم فإني مقيم حتي يفتح الله بيني وبينه وهو خير الفاتحين.

فقام إليه أبو عبد الله الجدلي، ومحمد بن بشر، وعبد الله بن سبيع فتكلموا وأعلموه أنهم غير مفارقيه.

قالوا: وجد ابن الزبير في قتال ابن الحنفية، وكره ابن الحنفية أن يقاتله في الحرم، وقد كان خبر ابن الحنفية انتهى إلى عبد الملك بن مروان، وبلغه فعل ابن

الزبير فبعث إليه يعلمه إنه إن قدم عليه أحسن إليه، وعرض عليه أن ينزل أي الشام شاء حتى يستقيم أمر الناس، وكان رسوله إليه حبيب بن كره مولاهم.

وكتب عبد الله بن عباس إلى عبد الملك في محمد ابن الحنفية كتاباً يسأله فيه الوصاة بمحمد ابن الحنفية والعناية بشأنه والحيطة عليه، إذا صار إلى الشام، فأجابه عبد الملك بكتاب حسن يعلمه فيه قبول وصيته، وسأله أن ينزل به حوائجه، وخرج ابن الحنفية وأصحابه يريدون الشام، وخرج كثير عزة أمامه وهو يقول:

هديت يا مهديّاً ابن المهتدي ... أنت الذي نرى به ونرتجي
أنت ابن خير الناس من بعد النبي ... أنت إمام الحق لسنا نمتري

يا بن عليٍّ سر ومن مثل علي

وأتى ابن الحنفية مدين وبها مظهر بن حبي العكي من قبل عبد الملك، فحدثه أصحابه بما كان من غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد بن العاص بعد أن أعطاه العهود المؤكدة فحذره ونزل أيلة، وتحدث الناس بفضل محمد وكثرة صلاته وزهده وحسن هديه، فلما بلغ ذلك عبد الملك ندم على إذنه له في قدوم بلده فكتب إليه: إنك قدمت بلادنا بإذن منا، وقد رأيت ألاَّ يكون في سلطاني رجل يم يبايعني. فلك ألف ألف درهم أعجل لك منها مائتي ألف درهم ولك السفن التي أرفأت إليك من مصر، وكانت سفناً بعث إليه فيها بأمتعة وأطعمة.

فكتب إليه ابن الحنفية: قد قدمنا بلادك بإذنك إذ كان ذلك لك موافقاً وارتحلنا عنها إذ أنت لجوارنا كارهاً.

وقدم ابن الحنفية فنزل الشعب بمكة، فبعث إليه ابن الزبير: ارتحل عن هذا الشعب فما أراك منتهياً عنه أو يشعب الله لك ولأصحابك فيه أصنافاً من العذاب.

وكتب إلى مصعب بن الزبير أخيه يخبره بأسماء رؤساء أصحاب ابن الحنفية ويأمره أن يسير نساءهم من الكوفة فسير نساء نفر منهم فيهن امرأة طفيل بن عامر ابن واثلة، وهي أم سلمة بنت عمرو الكنانية، فجاءت حتى قدمت عليه فقال الطفيل في ذلك:

::
:
::
إن يـــك ســـيّرها مصـــعبٌ : فـــإني إلـــى مصـــعب مـــذنب
أقـــود الكتيبـــة مســـتلئماً :: كـــأني أخـــو عـــرةٍ أجـــرب
علـــيّ دلاصٌ تخيّرتهـــا : وبـــالكف ذو رونـــق مقضـــب
سـعرت عليهم مـع السـاعرين :: نـــاراً إذا خمـــدت تنقـــب
فلـــو أن يحيـــى بـــه قـــوةٌ : فيغـزو مـع القـوم أو يركـب
ولكـن يحيـى كفـرخ العقـاب :: ريـــش قوادمـــه أزغـــب
:
::
:

فكف ابن الزبير عن ابن الحنفية حتى إذا حج الناس، وكان يوم النفر أرسل إليه: تنح عن هذا المنزل وانفر مع الناس وإلا فإني مناجزك.

فسأله معاذ بن هانئ وغيره من أصحابه أن يأذن في مقارعته، وقالوا: قد بدأك بالظلم واضطرك وإيانا إلى الامتناع، فقال له ابن مطيع: لا يغرنك قول هؤلاء فإنهم قتلة أبيك وأخيك، فقال له: نصبر لقضاء الله، اللهم ألبس ابن الزبير لباس الذل والخوف، وسلط عليه وعلى أشياعه وناصريه من يسومهم مثل الذي يسوم الناس، اللهم ألبسه بخطيئته، وأجعل دائرة السوء عليه، سيروا بنا على اسم الله إلى الطائف.

فقام ابن عباس فدخل على ابن الزبير فقال له: ما ينقضي عجبي من تنزيك علي بني عبد المطلب، تخرجهم من حرم الله وهم والله أولى به وأعظم نصيباً فيه منك، إن عواقب الظلم لترد إلى وبال.

فقال ابن الزبير: ما منك أعجب ولكن من نفسي حين أدعك تنطق عندي ملء فيك، فقال ابن عباس: والله ما نطقت عند أحد من الولاة أخس منك، قد والله نطقت غلاماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، ونطقت رجلاً عند عمر وعثمان وعلي يروني أحق من نطق فيستمع لرأيي، وتقبل مشورتي، وكل هؤلاء خير منك ومن أبيك.

فقال: والله لئن كنت لي ولأهل بيتي مبغضاً، لقد كتمت بغضك وبغض أهل

أبيك مذ أربعون سنة. فقال ابن عباس: ذلك والله أبلغ إلى جاعرتيك، بغضي والله ضرك وإثمك إذ دعاك إلى ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في خطبك فإذا عوتبت على ذلك قلت إن له أهيل سوء، فإذا صليت عليه تطاولت أعناقهم وسمت رؤوسهم.

فقال ابن الزبير: اخرج عني فلا تقربني. قال: أنا أزهد فيك من أن أقربك، ولأخرجن عنك خروج من يذمك ويقليك. فلحق بالطائف فلم يلبث يسيراً حتى توفي فصلى عليه ابن الحنفية، فكبر عليه أربعاً وضرب على قبره فسطاطاً.

ولم يزل ابن الحنفية بالطائف حتى أقبل الحجاج بن يوسف من عند عبد الملك إلى ابن الزبير، فلما حصره عاد ابن الحنفية إلى الشعب.

وكتب إليه عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير وبعثته الحجاج: أما بعد فإذا أتاك كتابي فاخرج إلى الحجاج عاملي فبايعه. فكتب إليه: إني لا أبايع حتى يجتمع الناس عليك فإذا اجتمعوا كنت أول من يبايع.

فلما قتل عبد الله بن الزبير، وهو يومئذ بالشعب أيضاً سرح أبا عبد الله الجدلي بكتاب منه إلى عبد الملك يسأله فيه الأمان لنفسه وأصحابه، وبعث إليه الحجاج يأمره بالبيعة فأبى وقال: قد كتبت إلى عبد الملك كتاباً، فإذا جاءني جوابه بما سألته بايعت.

قال: أو تشترط على أمير المؤمنين الشروط لتبايعني طائعاً أو كارهاً؟! فأتاه عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: ما تريد من رجل ما نعلم في زماننا مثله. أمسك عنه حتى يأتيه كتاب ابن عمه.

وقد كان كتاب عبد الملك أتى الحجاج قبل قتل ابن الزبير يأمره فيه بالكف عن ابن الحنفية والرفق به، فأمسك الحجاج حتى قدم على ابن الحنفية رسوله أبو عبد الله الجدلي بجواب كتابه ببسط الأمان وتصديق قوله ووصف ما هو عليه في إسلامه وعفافه وفضله وقرابته وعظيم حقه، وقال له: لعمري لئن ألجأتك إلى الذهاب في الأرض خائفاً لقد ظلمتك وجفوتك، وقطعت رحمك، فبايع الحجاج على بركة الله، وأمره بالقدوم عليه آمناً مأموناً وفي الرحب والسعة، وإلى الكرامة والأثرة والمواساة.

فخرج إلى الحجاج فبايعه لعبد الملك، وأشخصه الحجاج إليه في جماعة منهم عبد الله بن عمرو بن عثمان، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وعروة بن الزبير، فلما قدم على عبد الملك أعظمه وأكرمه وبره وأقبل عليه، فحسده الحجاج على ما رأى من احتفاء عبد الملك به فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد أردت أن أضرب عنقه لولا تقدمك إلي في أمره لتأخره وتثاقله عن البيعة.

فقال له عبد الملك: مهلاً يا حجاج. فسأله ابن الحنفية أن ينزع عنه سلطانه فقال: إنه لا سلطان له عليك ولا لأحد من الناس دوني، ولك في كل سنة رحلة ترفع إلي فيها حوائجك فأقضيها لك.

ويقال إنه قال: أخلني يا أمير المؤمنين. فقال: إنه ليس دون الحجاج سر. قال: فاعدني عليه فإنه يكلفني الغدو والرواح إليه ويعدي علي غرمائي قبل بيع الثمرة. فقال عبد الملك: لا سلطان لك عليه دون بلوغ الثمرة، ولا على عبد الله بن جعفر فإنهما ينتظران الغلة، أو صلتنا.

ثم انصرف من عند عبد الملك وكان معه جماعة من أصحابه منهم عامر بن واثلة أبو الطفيل، ومحمد بن بشر، ومحمد بن يزيد بن مزعل حتى قدموا المدينة.

عن ابن كيسان قال: قال عبد الملك لابن الحنفية حين قدم عليه وهما خلوان: أتذكر فعلتك يوم الدار؟ فقال: أنشدك الله والرحم يا أمير المؤمنين. فقال: والله ما ذكرتها ولا أذكرها.

وكان محمد سمع مروان قال لعلي يوم الدار: قطع الله الليلة أثرك، فأخذ محمد بحمائل سيف مروان فرجع ففرق بينهما.

ويقال ان الحجاج وجه ابن الحنفية إلى عبد الملك وافداً فأكرمه وبره، ثم رده إلى المدينة وقال: فد إلي في كل عام، وإن الحجاج لم يشخصه معه.

وتوفي محمد ابن الحنفية بالمدينة ودفن بالبقيع سنة إحدى وثمانين، ويقال: في سنة اثنتين وثمانين [1].

ومن قوته أيضا ما حكاه المبرد في كتابه أن ملك الروم في أيام معاوية وجه

(1) أنساب الأشراف، 1 / 444 - 447.

إليه: إن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا، ويجهد بعضهم أن يغرب على بعض، أفتأذن في ذلك فأذن له، فوجه إليه برجلين أحدها طويل جسيم، والآخر أيد، فقال معاوية لعمرو بن العاص: أما الطويل فقد أصبنا كفؤه، وهو قيس بن سعد ابن عبادة رضي الله عنه، وأما الآخر الأيد فقد احتجنا إلى رأيك فيه، فقال عمرو: ها هنا رجلان كلاهما إليك بغيض: محمد ابن الحنفية، وعبد الله بن الزبير، فقال معاوية: من هو أقرب إلينا على كل حال، فلما دخل الرجلان وجه إلى قيس بن سعد بن عبادة يعلمه، فدخل قيس، فلما مثل بين يدي معاوية نزع سراويله، فرمى بها إلى العلج فلبسها فبلغت ثندوته، فأطرق مغلوبا، فقيل إن قيسا لاموه في ذلك، وقيل له: لم تبذلت هذا التبذل بحضرة معاوية هلا وجهت إليه غيرها فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه ... سراويل عادي نمته ثمود
وإني من القوم اليمانين سيد ... وما الناس إلا سيد ومسود
وبذ جميع الخلق أصلي ومنصبي ... وجسم به أعلو الرجال مديد

ثم وجه معاوية إلى محمد ابن الحنفية فحضر، فخبر بما دعي له، فقال: قولوا له إن شاء فليجلس وليعطني يده حتى أقيمه أو يقعدني، وإن شاء فليكن القائم وأنا القاعد، فاختار الرومي الجلوس فأقامه محمد، وعجز الرومي عن إقعاده، ثم اختار أن يكون محمد هو القاعد، فجذبه محمد فأقعده، وعجز الرومي عن إقامته، فانصرفا مغلوبين.

وبلغ محمد بن علي بن أبي طالب أن ابن الزبير قام خطيبا فنال من علي بن أبي طالب، فدخل المسجد الحرام، فوضع رحلا، ثم قام عليه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد، ثم قال: شاهت الوجوه، يا معشر قريش، أيقال هذا بين أظهركم وأنتم تسمعون ويذكر علي فلا تغضبون؟ ألا إن عليًّا كان سهما صائبا من مرامي الله أعداءه، يضرب وجوههم، ويهوعهم مأكلهم، ويأخذ بحناجرهم. ألا وأنا على سنن ونهج من حاله، وليس علينا في مقادير الأمور حيلة، وسيعلم

الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

فبلغ قوله عبد الله بن الزبير، فقال: هذا عذرة بني الفواطم، فما بال ابن أمه بني حنيفة؟ وبلغ محمداً قوله، فقال: يا معاشر قريش وما ميزني من بني الفواطم؟ أليست فاطمة ابنة رسول الله حليلة أبي وأم إخوتي؟ أ وليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي وأم أبي؟ أليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جدة أبي وأم جدتي؟ أما والله لو لا خديجة بنت خويلد لما تركت في أسد عظماً إلا هشمته، فإني بتلك التي فيها المعاب صبير.

ولما لم يكن بابن الزبير قوة علي بني هاشم، وعجز عما دبره فيهم، أخرجهم عن مكة، وأخرج محمد ابن الحنفية إلى ناحية رضوى، وأخرج عبد الله بن عباس إلى الطائف إخراجاً قبيحاً، وكتب محمد بن الحنفية إلى عبد الله بن عباس: أما بعد، فقد بلغني أن عبد الله بن الزبير سيرك إلى الطائف، فرفع الله بك أجرا، واحتط عنك وزرا، يا ابن عم، إنما يبتلي الصالحون، وتعد الكرامة للأخيار ولو لم تؤجر إلا فيما نحب وتحب قل الأجر، فاصبر فإن الله قد وعد الصابرين خيراً، والسلام.

من أقوال ابن الحنفية :

قال محمد بن الحنفية: يا منذر، قلت: لبيك، قال: كلُّ ما لا يُبتغى به وجه الله تعالى يضمحل.

وقال: ليسَ بحكيمٍ مَن لمْ يعاشِرْ بالمعروفِ مَن لا يجدُ بدًّا مِن معاشرتِه حتى يجعلَ اللهُ له فرجاً ومخرجاً.

وعن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: أبو بكر؛ قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر؛ وخشيت أن يقول: عثمان، قلت: ثم أنت! قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين [1].

ووقف محمد ابن الحَنَفية على قبر الحسن بن علي رضي الله عنه فخَنَقَتْه العَبرَة ثم نَطقَ فقال: يَرْحمك الله أبا أحمد؛ فلئن عزّت حَياتُك فلقد هَدَّت وفاتُك؛

(1) صحيح البخاري، 1 / 367.

ولَنِعْم الرُّوح روح ضَمّه بدَنك؛ ولَنِعْمَ البدن بَدَنٌ ضَمَّه كَفَنُك؛ وكيف لا تكون كذلك وأنت بقيّة ولد الأنبياء، وسليل الهُدى وخامِس أصحاب الكِساء، غَذَتْك أكُفّ الحقّ ورُبيت في حِجْر الإسلام، فطِبْت حيّاً وطِبْت مَيّتاً، وإن كانت أنفسنا غيرَ طيّبة بفراقك ولا شاكة في الخِيار لك.

قالَ محمد ابن الحنفية: مَن كرمتْ عليه نفسُهُ لم يكن للدنيا عنده قدرٌ.

وكان ابن الحنفية يقول: إني واصف لك أخاً لي كان أعظم الناس في عيني، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يضع فيها ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم على الأمر إلا بنية [1].

قال ابن الحنفية: رحم الله امرءاً أغنى نفسه وكف يده وأمسك لسانه وجلس في بيته له ما احتسب وهو مع من أحب.

قال محمد ابن الحنفية: إنَّ اللهَ تعالى جعلَ الجنةَ ثمناً لأنفسِكم فلا تبيعوها بغيرِها.

* * *

(1) عن أبي الحسن القرشي قال: قال رجل من الأنصار: صَغُرَ فلان في عيني لِعِظَم الدنيا في عينه، كان يردُّ السائلَ ويَبْخَلُ بالنائل يعني العطاء.